

هُدبة بن الخشرم؛ وقفة في حياته وشعره

رمضان رضائي*

الملخص

كان هُدبة بن الخشرم أصله من قبيلة عذرة، وليس في المصادر الكثير عن حياته، وشعره إلا ما كان بينه، وبين ابن عمه (زيادة) من المقاتلة التي أفضت إلى سجنه وقتله صبراً. وكان أول ما أثار الخصومة بينه، وبين ابن عمه زيادة بن زيد، مراهنة بين حوط بن خشرم التي جرّت الحرب بين القبيلتين. ثم ما ارتجزه وأفحش به زيادة في أخت هُدبة ثم ردّ هُدبة عليه بالتفحش بأخت زيادة. ثم تقاتلا فقتل هُدبة زيادة فقبض عليه، وسجن ثم حكم بتسليمه إلى أهل المقتول ليقتصوا منه فقتلوه أمام والي المدينة. وكان هُدبة راوية، وشاعراً فصيحاً. إلا أن أسلوبه في الشعر بدوي، وفي شعره شيء من الضعف، والغموض إلى جانب قُدْر من الصناعة اللفظية. وفي رجزه الذي ناقض فيه عبد الرحمن بن زيد مُجون. ولما دخل هُدبة السجن كثر شعره، وجاد. أما فنونه فهي: الهجاء، والحماسة، والغزل، والحكمة.

الكلمات الدلالية: هُدبة بن الخشرم، الشعر الأموي، شعر السجن، الغزل، الفخر.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في تبريز.

المقدمة

عاشت مدن الحجاز في العصر الأموي في حالة من التحضّر وخاصة، المدينة ومكة؛ فإن نجدًا وبادي الحجاز قلما سقط فيها من الحضارة شيء ذو بال، إذ استمرت القبائل فيهما، تعيش على الرعي، وطلب الكلاء، فهي تعيش كأسلافها في الجاهلية، معيشة مبتدئة فيها غير قليل من الشّطف. وفي هذه البيئة ظلت المنافسات القبلية مستمرة في مجالات عديدة قبل ظهور الإسلام، وبعده. وإن كان من المحقق أنّ ذلك لم يأخذ الشكل الحادّ الذي كان عليه القوم في الجاهلية، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر، وتحوّل حقّه من أيدي الدّولة، وكان ولاية بني أمية في نجد، وبادي الحجاز يقظين، وكانوا إذا تفاقم الشرّ من بعض الأفراد زجّوا به في السجون.

ومن المعروف أنّ الشعراء الذين اشتهروا في أول الإسلام، وفي عهد بني أمية، أشعر من السابقين، ولعل السبب يعود إلى استتباب السكينة، والهدوء بعد حروب الأمويين الأولى؛ هذا وإننا نرى في قصائدهم مع متانة شعراء الجاهلية، سلاسة شعراء الإسلام، كشعر الأخطل، وشعر القظامي. ومن خصائص هؤلاء الشعراء، أنّ المتتبع لأشعارهم، لا يجد في مضامينهم شيئاً من بداءة معاصريهم، ومجونهم؛ كجرير، والفرزدق. فكان دينهم أرشدهم إلى العفاف، والحياد عن التهنك، والخلاعة، ونشير في هذا المقال إلى هدبة بن الخشرم الذي نبغ في تلك الحقبة.

أصله وأسرته

هو هدبة بن الخشرم، بن كرز بن أبي حية بن الكاهن - وهو سلمة - بن أسحم بن عامر بن ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هذيم؛ وسعد بن هذيم شاعر من أسلم بن الحاف بن قضاة؛ ويقال: بل هو سعد بن أسلم، وهذيم عبد لأبيه ربّاه؛ فليل: سعد بن هذيم، يعني سعداً هذا. (الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٦٦) وفي تاج العروس دعى جدّه «كريزا». (الزبيدي، لاتا، ج ١: ٥١٣) وأورد ابن دريد هذه الإشارة في الاشتقاق. (ابن دريد، ٢٠٠١م: ٤٢٠) ثم جعل ابن دريد، أبا الحية كاهناً ليس ابن الكاهن، وهذا خلاف



ما جاء في الأغاني. (الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٦٦) وأمه حيّة بنت أبي بكر ابن أبي حية، من أقاربه الأذنين. (فروخ، ١٩٨٤م، ج ١: ٣٦٩)

وقيل إنه دُعي هدبة، وهو اسم طائر، وقيل إنه من هدبة الثوب، أي: خمله وطرّته. وكان اسم أبيه خشرم والخشرم جماعة النحل، وأميرها، وكان من وجوه رهطه بن عامر. أمّا هدبة فكان معروفاً بالشجاعة، والنجدة، والجلادة، والصبر، والمروءة. (شيخو، ١٩٩٩م: ٩٦) كان لهدبة ثلاثة أخوة، كلهم شعراء: حوط، وسيحان والواسع؛ وكانت أمهم «حية» شاعرة أيضاً. (الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٦٦) وكان لهدبة أختان أيضاً، تُدعى الأولى سلمى، وهى زوجة زيادة بن زيد الذبياني، من بنى رقامش، والأخرى فاطمة التى تغزل فيها زيادة، فكانت سبب الشرّ بين القبيلتين. (شيخو، ١٩٩٩م: ٩٦)

وكان قوم هدبة يسكنون بادية الحجاز، وقد انقسموا فريقين ذوى عصبيتين قويتين: بنى عامر بن عبدالله بن ذبيان ثم بنى رقامش بنى قُرّة بن حُنيس بن عبدالله بن ذبيان. وقد كانت بين الفريقين حروب، ومارعات. (فروخ، ١٩٨٤م، ج ١: ٣٦٩)

ويعتبر هدبة شاعراً فصيحاً متقدماً من بادية الحجاز، وكان شاعراً راوية؛ كان يروى للحطيئة، والحطيئة يروى لكعب بن زهير، وكعب بن زهير يروى لأبيه زهير، وكان جميل راوية هدبة، وكثير راوية جميل، فلذلك قيل: إن آخر فحل اجتمعت له الرواية إلى الشعر كثير. (الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٦٦)

دينه

كان هدبة نصرانياً، ولعل اسم الكاهن بين أجداده يدلّ على كهنوت النصارى، ولايراد به الساحر. وكان معنى الكاهن فى الجاهلية يدلّ على خادم الدين، ومقرّب الأقداس للإله. ويتضح من هذا أنّهم ما أرادوا بلفظة الكاهن السحرة، والمشعوذين فقط؛ بل أخذوها أيضاً بمعناها الخاص، أى: راعى الدّين القويم، وخادم الأسرار المقدسة، وإن لم ينصوا عليه. (شيخو، ١٩٨٩م: ٢٠١) وقد أشار صاحب «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» إلى نصرانية قبيلة قضاة التى كانت تُعدّ من أمهات القبائل، وإلى نصرانية

بطونها: كجرم بن ريان، وسليح بن وبرة، وتيم اللات. وممن صرّحوا بدينها النصراني: ابن واضح اليعقوبي في تاريخه، حيث قال: «كانت قضاة أوّل من قدم الشام من العرب... فدخلوا في النصرانيّة فملكهم ملك الروم على من ببلاد من العرب.» (المصدر نفسه: ١٣٧) وجاء في بعض المراجع خلاف ما أثبتته الأب لويس شيخو في «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، من نصرانيّة هدية. جاء في «اللائي» للبركي: لما سجن هدية في دم زيادة، جعل القرشيون يكلمون عبدالرحمن أخاه، في أمر هدية وأضعفوا له الدية حتى بلغت عشراً منهم: سعيد بن العاص، وعبدالله بن عمر، والحسين بن عليّ (ع)، وعمرو بن عثمان بن عفان. فلما أكثروا، امتنع عبدالرحمن، وقال هدية: دعوه فوالله لا يقبل عقلاً أبداً جزيتهم خيراً. فأقام هدية في السجن، ست سنين حتى أدرك المسور بن زيادة، ومات عبدالرحمن طوال ذلك، وكان المسور، هو الذي وليّ قتل هدية، وذكر المدائني: أن المسور كان قد اختار العفو، وأخذ الدية حتى قالت له أمّه: والله لئن لم تقتل هدية لأنكحته، فيكون قد قتل أباك، ثم ينكح أمك فتسب بذلك يد المسند، فلفته ذلك عن مذهبه، ومضى على الاتّثار من هدية، وقتل. (البركي، ٢٠٠١م: ١٠٣٩) وجهود القرشيين، وتحضيض المسور لأخذ الدية، دليل على إسلامية رهط هدية، وزيادة. والدليل الآخر ما أورده صاحب الوافي بالوفيات حين أورد: وقال مصعب الزبيري: كنا بالمدينة أهل البيوتات، إذا لم يكن عند أحدنا أخبار هدية، وزيادة، وأشعارهما. وتعجب بها، وبعث هدية إلى عائشة رضی الله عنها يقول لها: استغفري لي، فقالت: إن قتلت استغفرت لك. (الصفدي، ٢٠٠١م، ١٩٦٧٥) وأمّا ما جاء في خزنة الأدب للبغدادى فخير دليل على إسلامية هدية: «ولم يزل سعيد يسأله حتى عرض عليه ستّ ديات، فأبى، وقد دفعه إليه حينئذٍ لقتله بأخيه، فاستأذن هدية في أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما. وخفف، ثم التفت إلى من حضر، فقال: لولا أن يظن بي الجزع لأطلتهما، فقد كنت محتاجا إلى إطالتهما. ثم قال لأهله: إنه بلغني أن القتييل يعقل ساعة بعد سقوط رأسه، فإن عقلت فني قابضُ رجلى، وباسطها ثلاثاً. ففعل ذلك حين قتل. وقال قبل أن يقتل:

إن تقتلونى فى الحديد فإننى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيد



فقال عبدالرحمن أخو زيادة: والله لا قتلته إلا مطلقاً من وثاقه. فأطلق له، وتولى قتله ابنه المسور، دفع إليه عمه السيف، وقال: قم فاقتل قاتل أبيك. فقام فضربه ضربتين قتله فيهما. وهدبة أول من سنّ ركعتين عند القتل. (البغدادي، ٢٠٠١م: ٨٠١٥) وقيل إن هدبة أول من أقيد منه في الإسلام. (المرزباني، لاتا: ٥٦١)

أخباره

وتمّ الاتفاق في حديث طويل، أن هدبة بن الخشرم قتل صهره (زوج أخته سلمى) زيادة بن زيد بن مالك بن عامر في أيام ولاية سعيد بن العاص على المدينة، ثم هرب، وقبض سعيد بن العاص على نفر من أهل هدبة فيهم: زفر بن كرز (عمّ هدبة) حتى جاء هدبة، وأسلم نفسه للسجن، فأفرج سعيد بن العاص عن أهله. (فروخ، ١٩٨٤م، ج ١: ٣٩٦) وجاء في الأغاني في هذه الرواية المشؤومة، أن حوطا بن خشرم أخوا هدبة، راهن زيادة بن زيد على جملين من إبلهما، وكان مطلقهما من الغاية على يوم، وليلة. وذلك في القيظ فتزودوا الماء في الروايا، والقرب. وكانت أخت حوط، سلمى بنت خشرم تحت زيادة بن زيد فمالت مع أخيها على زوجها، فوهنت أوعية زيادة ففنى ماؤه قبل ماء صاحبه، ففي ذلك يقول زيادة:

قد جعلت نفسي في أديمٍ مُحَرَّمِ الدِّبَاغِ ذِي هُزُومِ
ثمَّ رَمَتِ فِي عُرْضِ الدَّيْمُومِ فِي بَارِحٍ مِنْ وَهَجِ السَّمُومِ
عند اِطِّلاَعِ وَهَجَةِ النُّجُومِ

وقال زيادة أيضاً:

قد عَلِمْتُ سَلْمَةَ بِالْعَمِيسِ لَيْلَةَ مَرَمَارٍ وَمَرْمَرِيسِ
أَنَّ أَبَا الْمِسُورِ ذُو شَرِيسِ يَشْفِي صُدَاعَ الْأَبْلَجِ الدَّلِيسِ

قال: فكان ذلك أول ما أثبت الضغائن بينهما. ثم إن هدبة، وزيادة اصطحبا، وهما مقبلان من الشام في ركب من قومهما. فكانا يتعاقبان السوق بالإبل، وكانت مع هدبة أخته فاطمة فنزل زيادة، وقال رجزاً أوله: «عوجى علينا وأربعى يا فاطما»، فغضب

هدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته، فنزل، وارتجز بأخت زيادة، وكان اسمها أم الخازم، وقيل أم القاسم. فشتمه زيادة، وسبه هدبة، فصاح بهما القوم، ووعظوهما حتى أمسك كل واحد منهما على ما في نفسه، وهدبة أشدُّهما حنقاً لأنّه رأى أنّ زيادة رجز بأخته، وهى تسمع، وأخت زيادة غائبة لم تسمع رجزه فمضيا، ولم يتحاورا بكلمة حتى رجعا إلى عشائرهما.

ثمّ زاد حنق رهط هدبة إذ سمعوا أذرع أخا زيادة يرجز يزفر عمّ هدبة، فلم يزالوا يترصدونه حتى خلوا، وضربوه الحدّ ضرباً مبرحاً، فراح بنو رقاش، وقد أضمروا الحرب. (شيخو، ١٩٩٩م: ٩٧)

ولما لجّ الشرّ بين رهط هدبة، ورهط زيادة قال قوم لزيادة له: اهج هدبة، وقومه. فقال: إنى لم أبسط لسانى على قوم قطّ إلاّ جهدوا على تبلى (ويروى: قتلى) من شدة هجائى، ولكن انطلقوا لنضربه. فخرج زيادة فى رهط قومه فيهم إخوه نفاع يطلبون هدبة، فوجدوا الحىّ خلوفاً، ووجدوا هدبة، وأباه خشرماً، فضربوهما بسيفهم فأصاب خشرماً شجّات فى رأسه، ووقع بذراع هدبة حزّ، وضرب نفاع برجله ريحانة أم هدبة، فقال قائلهم:

شَجَجْنَا خَشْرَمًا فِي الرَّأْسِ سَبْعًا وَخَدَعْنَا هُدَيْيَةَ إِذْ هَجَانَا
كَذَاكَ الْعَبْدُ إِنَّ الْعَبْدَ يَوْمًا إِذَا وَقَفْتَهُ بِالسَّيْفِ لَانَا
فَأَجَابَهُ هَدْبَةٌ:

وَإِنَّ الدَّهْرَ مُؤْتَنَفٌ طَوِيلٌ وَشَرُّ الْخَيْلِ أَقْصَرُهَا عَنَانَا
وَلَيْسَ أَخُو الْحُرُوبِ بَمَنْ إِذَا مَا مَرَّتْهُ الْحَرْبُ بَعْدَ الْعَصَبِ لَانَا

ثمّ إنّ هدبة جمع رهطاً من قومه، وأصحابه فقصدوا لزيادة، وكانت ريحانة أم هدبة نهته عن الخروج فلم يَنْتَه، وأتوهم ليلاً فى وادٍ يقال له حَشُوب وزيادة، وأبياته على ماءٍ يدعى سَحْنَة، فمضوا حتى بَيَّتُوا زيادة فلما غشوه، جعل يرتجز، ويقول، وفى رجزه إشارة إلى دين هدبة، وقومه:

مَنْ أَيْنَ جَاءَتْ عَامِرُ الْقُبُوحِ لَامْرِحْبًا بِأُمَّةِ الْمَسِيحِ



لن تقبلوا العَقل مع الفُضوح
ولن تُبيحوا الحيَّ في سَريحِ
حتى تَذوقوا خُذْبَ الصفيحِ
وجعل نَفَّاع أخوه يرتجز، ويقول:

إنى إذا استخفى الجبان بالخدر
وكان بالكفَّ شهابٌ كالشَّرر
صدقُ القناة غير شعشاع العذر
حمالٌ ما حملتُ من خيرٍ وشرِّ
وهي طويلة ثم التقى هدبة، وزيادة فضرب هدبة زيادة، فأطن داغضةً رجله أى
عضلتها فاعتمد على رمح وجعل يُذَبِّب بسيفه عن نفسه حتى غشبه هدبة فصرعه،
وزعموا أن زيادة جدع أنف هدبة في تذييبه عن نفسه وضرب القوم زيادة حتى ظنوا
أنهم قد اجهروا عليه. ثم أتوا منزل أدرع أخى زيادة فصوتوا به فخرج عليهم فحاضرهم،
ونجا منهم فقال هدبة:

وكانت شفاء النفس ممَّا أصابهم
غدا تئد لو نلتُ بالسيفِ أدرعا
وأقسمُ لو أدركتُهُ لكسوتُهُ
حُساماً إذا ما خالطَ العظمَ أمراً

ثم رجع إلى زيادة فوجده صريعاً بين النساء، فضرب عاتقه بالسيف حتى خرجت
الرئة من بين كتفيه. فانصرف إلى أهله فأخبرهم، وشبَّت الحرب بين الحيين، ونأى كلُّ
واحد منهما عن صاحبه. (شيخو، ١٩٩٩م: ٩٩)

شاعريته

هدبة بن خشرم شاعرٌ في أسرة من الشعراء؛ كان أبوه، وأمّه، وإخوته الثلاثة، وابن
عمّه عبد الرحمن شعراء. وهو شاعرٌ مُطيل له قصيد، ورجز، وهو يرتجل بيُسرٍ. وأسلوبه
بدوى، وفي شعره شيء من الضعف، والغموض إلى جانب قدرٍ من الصناعة اللفظية. وفي
رجزه الذى ناقض فيه عبد الرحمن بن زيد مُجون. ولما دخل هدبة السجن كثُر شعره،
وأجاد. أما فنونه فهي: الهجاء، والحماسة، والغزل، والحكمة. (فروخ، ١٩٨٤م، ج: ١: ٣٩٧)
وقد أفادنا ابن النديم في الفهرست أن السكرى «عمل أشعار جماعة من الفحول»
ذكر من جملتهم «هدبة بن الخشرم» وصهره «زيادة بن زيد»؛ ولا بُدَّ أن يكون ديوانهما

مفقوداً، وممّا روى عن مروان بن أبي حفصة، وعن حمّاد الراوية قولهما. (الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٧٦) وكان هديبة أشعر الناس منذ دخل السجن إلى أن أقيّد، وفي قوله هذا شاهد على ما قيل بأنّ أشعر الشعر ما أنشده صاحبه متجرّداً عن الغايات مندفعاً إليه بعواطف غريزته.

كان هديبة شاعر القبيلة كما كان الأمر في البادية. إن المقصود (بشاعر القبيلة) هو الشاعر الذي عاش في العصور الجاهلية في تبعية كلية لوسطه الاجتماعي. إن هذا الشاعر انبثاق عن المجموع الذي ولد فيه، وعاش، ونشط. فإن كلّ جهد للانفلات من قبضته عبث، حتى أن الصعلوك أو (الشاعر اللص) بإعلانه حقه على رهطه يشهد بذلك على متانة الروابط التي قطعها. وكان الشاعر القبيلة يجسّد رهطه أكثر من سواه، فتمّة ألوف من الروابط تشده إليه حتى في المواضيع التي يبدو فيها منفصلاً عنه، وكان يجسّد أيضاً أكثر من غيره تناقضات المجتمع البدوي السائدة فيه عبادة (الأنثا)، ونزعة الاستقلال الفردي اللتين تتعارضان، وعوامل اندماج الفرد في المجموع، وينتهي النزاع عند الشاعر بانتصار المجموع، ومهما تكن المكانة التي يحتلها الشاعر في قبيلته فهو يُسهم بالتظاهرات الأساسية في حياة الجماعة، فهو يشارك في الغزوات، والمعارك كافة. (بلاشير، ١٩٩٨م: ٣٧٣) وهذا ما أجرى عند قتل زيادة، وأصبح شعره في ذلك الوقت يصور النزاع القبلي.

ولم يكن الشاعر القديم لسان حال القبيلة، وحامل لوائها فحسب، بل كان يعيش دوره مهولاً هذا الدور بأحقاده الشخصية، تلك الأحقاد التي تتلاقى أحياناً، وأحقاد قبيلته؛ فهو ينشد الشعر بحماسة، أو يندفع مسعوراً في إنشاده، لأن مصير القبيلة مصيره، وليس (للأنثا) من حدود إلا حدود أسرته أو المجموع الذي ينتمي إليه، ومن هنا كثر عنده الاندفاع، أو الانتقاد، أو الحقد. ولنبداً بالأعداد: إن الجمهور يرقب شاعره، ويحرضه على قول الشعر. فالشعراء لا يقلون حماسة في الهجوم على الخصوم أو الرد عليهم، وهما أمران يقتضيان أحياناً حياة بكاملها يتبادلان فيها السخرية اللاذعة، والسباب، واللعنات. (المصدر نفسه: ٣٧٤) وهذه الأبيات خير دليل على ما ذكرناه في تدخل العصبية القبلية،



وكونه مصدرا للفخر:

إِنِّي مِنْ قُضَاعَةَ مَنْ يَكِدُّهَا أَكِدُّهُ وَهِيَ مِنِّي فِي أَمَانٍ

ليس يريد بهذا الكلام نسبة نفسه إلى قُضَاعَةَ فقط، بل يريد اختصاصه بهم، وتعصبه لهم. وهذا كما يقال: أنا من فلان، وإلى فلان، أي ابتدائي منه، وانتهائي إليه، فيقول: إِنِّي مُنْتَمٍ إِلَى قُضَاعَةَ أَهْوَى هَوَاهَا، وضلعي معها، فمن عاداها أو نابذها عاديتُه ونابذتُه، وهي آمنة من مكروهي وأذاي، إذ كنت أنعطف عليها فيما ينوبها، وأعتفر زلاتها فيما يتفق منها. وهذا الكلام في التنبيه في الاختصاص، والإبانة عن الطاعة والإخلاص، من أبلغ كلام وأكرم إنسان. ألا ترى أنه فصل ما أجمل، وفسر ما أبهم بقوله «مَنْ يَكِدُّهَا أَكِدُّهُ، وَهِيَ مِنِّي فِي أَمَانٍ؟» وهذا صفة جوارح الإنسان مع جملته وأبعاضه مع كله، بدلالة إنه يدافع من يريد إثابة أحدها، ثم هي آمنة من جنايته عليها، أو على شيء منها. (المرزوقي، ١٩٩١م: ٤٧٢)

وَلَسْتُ بِشَاعِرِ السَّفْسَافِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مِدْرَهُ الْحَرْبِ الْعَوَانِ

يقول: ليس محلي منهم، وفيهم محل شاعر يُسْفِسُ القريض، ثم يقضه دون غايته باليد واللسان.

سأهجو من هجاهم من سواهم أعرض منهم عن هجاني

من تعرض لهم بمكروه أو ذكرهم بسوء فإنني أدافعه عنهم، وأعارضه دونهم، وأقاتله عن تناوله منهم ومن تعرض لي منهم فإنني أعرض عنه وأصفح عن غيبه فلا أواخذه به صيانةً لهم، ومحافظةً على ما يجمعني وإياهم. (المصدر نفسه: ٤٧٤)

غزله العذري

ففي الشعر الجاهلي كانت الطبيعة بكل مظاهرها: الصحراء برمالتها، ونباتها، وحيوانها، تعانق عناصر الطبيعة الأخرى كالشمس، والقمر، والرياح، والأمطار. فتشكل مورد الشعراء الأساسي الذي يستمدون منه صورهم، وينمّون خيالهم، ويصقلون إحساسهم الجمالي ويرتقون به فيبدعون أجمل القصائد.

واستمر الشعراء في العصر الأموي ينهلون من الطبيعة، بل إن الشعراء الأمويين ربطوا خيالهم بخيال شعراء العصر الجاهلي، ورأوا بأعينهم كل ما وقعت عليه أخيلتهم، وتصوراتهم من مشبهات بسيطة تصور حياتهم في الصحراء العربية، وحاول هؤلاء جميعاً أن يربطوا كل مظاهر الجمال في الطبيعة بتصورهم للمرأة، فاصطفوا أجمل مشاهد الطبيعة، وقرنوها بجمال محبوباتهم، فاختروا من الطبيعة الرياض المزهرة، وخصّوا من الأزهار الأقحوان، والقرنفل في صفة الأسنان، وطيب الفم. ومن السماء اختاروا: الغيوم، والأمطار لصفة مشيتها وخصوبتها، وضمّوا إلى ذلك النجوم والأقمار في وصف جمال وجهها ولونها، ومن الصحراء اصطفوا رمالها، وكتبانها لوصف بعض أجزاء من جسمها، وتخيّروا من الحيوانات أجملها: كالغزال، والبقر الوحشي في صفة الرشاقة، والقد، والعيون، والحنان.

ويقول هديبة بن الخشرم مصوراً مواكب النساء الجميلات بأعناقهن التي استعرنها من الظباء الرشيقة، وأعينهن التي تشبه أعين البقر الوحشي في سعتها، ولونها، وثقل أردافهن بالسحاب المثقل بما يحمل من خير:

فلم تر عيني مثل سرب رأيته	خرجن علينا من زقاق ابن واقف
تضمخن في الجادى حتى كأنما الأ	نوف إذا استعرضتهن رواعف
خرجن بأعناق الظباء وأعين الـ	جآذر وارتجت لهن السوائف
فلو أن شيئاً صاد شيئاً بطرفه	لصدن ظباء فوقهن المطارف

(الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٧٤)

شعره في أيام حبسه

لم يزل هديبة بسبب قتل صهره محبوساً حتى شخص «عبدالرحمن» أخو «زيادة» إلى «معاوية»، وأرسل «هديبة» إلى معاوية، فلما صار الفريقان بين يديه، قال عبد الرحمن: «يا أمير المؤمنين، أشكو إليك مظلمتي، وقتل أخى، وترويع نسوتي.» فقال معاوية: يا هديبة قل. فقال: إن هذا رجل سّجاعة، فإن شئت أن أقصّ عليك قصتنا كلاماً



أو شعراً فعلت، قال: لا بل شعراً، فقال هدبة مرتجلاً:

ألا يا لَقُومِي لِلنَّوَابِجِ وَالدهِرِ وللمرء يُردى نفسه وهو لا يدري
وللأرض كم من صالح قد تأكمت عليه فَوَارَتْهُ بِلَمَاعَةِ قَفْرِ...
فيا قلبُ، لم يَألف كَالفِكَ آلفُ ويا حَبِّهَا لم يُغْرِ شَيْءٌ كَمَا تُغْرِ...
فلا تَتَّقِي ذَا هَيْبَةٍ لِجَلَالِهِ ولا ذَا ضِيَاعٍ هُنَّ يَتْرِكُنَ لِلْفَقْرِ

(فروخ، ١٩٨٤م، ج: ١، ٣٩٨)

بدأ هدبة قصيدته بمطلع حكيم، وكأنى به يقول: لا أمان للدهر وللمصائب، وقد يلقي المرء نفسه في التهلكة وهو لا يدري، وكم من رجال صالحين دفنوا فوارتهم الأرض وكأنه ليس تحتها شيء. ثم انتقل إلى التعبير الوجداني عما يكنه قلبه من حب لمحبوبة هي الأكثر إغراء. وعاد للحكمة، والنصح، وبعدها أخذ يمرض قضيته، قائلاً: اعتدى علينا، فرددنا فكان أن أصبنا رجلاً كان قد انتهى أجله المسطور. وأنت القاضي، والحكم فإن حكمت بالدية دفعناها مهما بلغت، وإن حكمت يقتلى صبياً، قبلت أيضاً هذا الحكم. استنتج معاوية من أقوال هدبة، اعترافه بالقتل، ويبدو أنه رقق لحاله، وبما أن عبدالرحمن رفض الدية، وأراد معاوية تأخير تنفيذ قتل هدبة، قال معاوية: هل لزيادة ولد؟ قال: نعم، غلام صغير. فأمر معاوية بحبس هدبة إلى أن يحتلم الغلام، فإن شاء قتل، وإن شاء أخذ العقل. (التبريزي، لاتا، ج: ٢، ١٦) وقد أراد معاوية من وراء ذلك، المماطلة، عسى مع مرور الزمن، أن تهدأ أهل القتل، ويقبلون بالدية، وبذلك ينقذ هدبة من الهلاك.

مكث هدبة في السجن عند سعيد بن العاص في المدينة ما شاء الله أن يمكث حتى أدرك «المسور» (ابن زيادة) وذلك ثلاث سنين وقيل خمس سنين وقيل ست سنين، وجعل عبدالرحمن يقدم المدينة فيكلمه القرشيون وغيرهم، وكان أهل المدينة قد رَفُوا لهدبة لوفائه وشعره، وإنه أول مصبور رأوه في المدينة بعد زمن النبي (ص) وأضعفوا له الدية حتى بلغت عشرين، وجعل يردد عليهم الاباء، فلما احتلم «المسور» وتقرر إخراج «هدبة» للقود، بعث إليه أخوانه بكفن، وحنوط، فقال:

ألا عَلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوَابِجِ وَقَبْلَ اطَّلَاعِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

وقبلَ غَدٍ يا لهفَ نفسي على غَدِ
إذا راحَ أصحابي نفيضُ عيونهمُ
إذا راحَ أصحابي نفيضُ عيونهمُ
يقولونَ هلْ أصلحتم لأخيكمُ
إذا راحَ أصحابي وَلَسْتُ بِرائِحِ
وَعُودِرْتُ في لحدِ عليَّ صَفَائِحِي
وما القبرُ في الأرضِ الفضاءِ بِصالحِ

(ابن قتيبة، ١٩٨٠م، ج ٢: ٥٨٣)

ولما كان في الليلة التي قتل في صباحها أرسل إلى امراته، وكان يحبها، فأنته في اللباس والطيب، فصارت إلى رجل قد طال حبسه، وأنتت في الحديد رائحته، فحادثها، وبكى وبكت، ثم راودها عن نفسها، وطاوعته، فلما علاها سمعت فقععة الحديد فاضطريت تحته، فتنحى عنها وأنشأ يقول:

وأذُنَيْتِي حتى إذا ما جعلتني
فإن شئتُ والله انتهيتُ وإنني
لدى الخَصْرِ أو أدنى استقلك راجفُ
لثلا ترينني آخرَ الدهرِ خائفُ

(الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٧٤)

ومن جيد شعره قصيدته البائية التي قالها في الحبس:

طربت وأنت أحيانا طروبُ
عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه
وكيف وقد تَعَلَّك المشيبُ...
يكونُ وراءهُ فرجٌ قريبُ
فيأمنُ خائفُ ويفكُ عانِ
ويأتى أهله النَّائِي الغريبُ

(شيخو، ١٩٩٩م: ١١١-١٠٩)

وهذا الكلام تعودنا سماعه من الشعراء المساجين، يعيشون في كرب ويأملون الفرج، إلا أنه في البيت الثالث يعبر عما يخالج نفسه من اضطراب، وخوف على مصيره، ويرجو العودة إلى أهله.

وينسب إليه قوله في السجن:

ألا ليت الرياحِ مسخراتِ
فتخبرنا الشمالُ إذا أتتنا
ب حاجتنا تباكرُ أو تؤوبُ
وتخبرُ أهلنا عنا الجنوبُ

يصور هدبة في سجن المدينة قساوة العيش فيه، إذ المنيّة متوقعه، ويشتاق لأهله، متمنياً أن تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم، تذهب إلى أهله تخبرهم عنه، وتأتي



بأخبارهم إليه.

ومن قوله في السجن أيضاً:

إِنِّي عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ مُحَكِّمٌ متى ما أَحْرُكُ فِيهِ سَاقِي يَصْحَبُ
حديداً ومرصوصاً بشييدٍ وجندلٍ له شُرْفَاتٌ مَرْقَبٌ فَوْقَ مَرْقَبِ
يُخَبِّرُنِي تَرَاعُهُ بَيْنَ حَلَقَةٍ أَرْوَمٍ، إِذَا عَضَّتْ وَكَبَلِ مُضَبِّبِ

تذكر هدية حبيته، وهو في غياهب السجن، وتتمنى لقاءها، ولكن أنى له ذلك وهو مسجون مربوط بالسلاسل، والقيود الثقيلة المشدودة على ساقه، والتي ثبت طرفها الآخر بجدران السجن، وهناك أبواب السجن الموصدة، والسجان خفير أمام الباب، والسجن يقع في مكان مرتفع والحرس على شرفاته.

يبدو أن تلك الحبيبة على قدر كبير من الجمال لأنه قال فيها:

وَجَدْتُ بِهَا مَا لَمْ تَجِدْ إِمْ واحداً ولا وَجَدْتُ حَبِيَّ بَابِنِ أُمَّ كِلَابِ
رَأَتْهُ طَوِيلَ السَّاعِدِينَ شَمَرْدَلَاً كما تَشْتَهِي مِنْ قُوَّةِ وَشَبَابِ

(الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٧٧)

واتفق صاحب الأغاني، وأخبار النساء على أن لهدية بيتين قصة، وهي أن هدية لما أخرج من السجن ليقاد منه فمر بـ«حبي» وهو ينشد الأشعار. فقالت له: ما رأيت أقسى قلباً منك، ولا أنكر أن يصبر الرجال على الموت، ولكن كيف تصبر عن هذه؟ يعني امرأته الجميلة التي كانت خلفه تولول. فوقف وأنشد البيتين السابقين فولت «حبي» هاربة.

وفي رواية أخرى: مرَّ «هدية» على «حبي» في طريقه إلى القود، فقالت: في سبيل الله شبابك، وجلدك، وشعرك، وكرمك، فقال هدية:

تَعَجَّبُ حَبِيَّ مِنْ أَسِيرٍ مُكَبَّلٍ صَلِيبَ الْعَصَا بَاقٍ عَلَى الرَّسْفَانِ
فَلا تَعَجَبِي مِنْ حَلِيلَةَ مَالِكٍ كَذَلِكَ يَأْتِي الدَّهْرُ بِالْحَدَثَانِ

(المصدر نفسه: ١٧٥)

إننا نحس، ونحن نقرأ هذا الشعر، بالقوة، والفخر، والإباء عند «هدية»، كذلك برباطة

الجأش في أحلك الأوقات، وأصعب الظروف، وكدنى به، لم يكن بحاجة إلى من يصبره ويهدى، من روعه، وفي مكان آخر يقول:

لعمري لئن أمسيت في السجنِ عانياً عليّ رقيبٌ حارسٌ متقوِّفٌ
إذا سبتي أغضيت بعدَ حميةٍ وقد يصبرُ المرءُ الكريمُ فيعرفُ

وهذا دليل على ما يقاسيه «هدبة» من آلام نفسية، وشعور بالمهانة، والذل، في السجن، إنه مرغم على كبت أحاسيسه، ومشاعره لأنه عاجز عن الثأر لكرامته. وهو الذي لجأ إلى قتل ابن عمه، لما داس على كرامته، مما أدى إلى سجنه، والآن ممن يثأر؟ وكيف؟ ليس أمامه إلا الاستسلام، والخنوع.

تحدث الشعراء المساجين، وأسهبوا عن السجن، وآلامه، ولكن أحداً منهم لم يذكر عبارة: إذا سبني أغضيت... لذلك كان لهدبة شرف السبق، فهل يعني ذلك أنه كان الأكثر عزة وإباءً؟

رفض عبد الرحمن أخو زيادة (القتيل)، كل وساطة أو دية، وبلغ ابن القتيل (المسور) الحلم، وجاء وقت القود، ولا مناص فاتجه هدبة إلى الله قائلاً:

إذا العرشِ إنني مسلمٌ بكَ عائِدٌ من النَّارِ ذو بَثٍّ إليكَ فقيرٌ
بغِيضٍ إلى الظُّلمِ ما لم أصبِ بهِ من الظُّلمِ مَشْعُوفُ الفؤادِ تَفِيرٌ
وإنِّي وإن قالوا أميرٌ وتابعٌ وحُرَّاسُ أبوابٍ لهنَّ صريرٌ
لأعلمُ أنَّ الامرَ أمرُكَ إن تَدِنَ فَرَبِّ، وإن تَغْفِرُ فأنتَ غَفُورٌ

(المرزوقي، ١٩٩١: ٤٧٦)

ولما خرج به صاحب الشرطة لقيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقال له أنشدني يا هدبة، فقال: أ أعلى هذه الحال. قققال: نعم، فأنشده:

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهرُ سرَّني ولا جازعٍ من صرفهِ المتقلبِ
ولا أتمنى الشرَّ، والشرُّ تاركِي، ولكن متى أحْمَلُ على الشرِّ أركبِ

ويدلُّ هذا على تمالك الأعصاب، ورباطة الجأش، إنسان يقاد إلى القتل، في اللحظات الأخيرة التي يودع فيها الحياة، ينطق بالحكمة الموحية بالقوة، والفخر، وليس



هذا فحسب، فقد ورد أنه في طريقه ليقتل، انقطع قبال نعله، فجلس يصلحه، فقبل له، أو تصلحه وأنت على ما أنت، فقال:

أشدُّ قَبَالَ نَعْلِي أَنْ يِرَانِي عِدْوِي لِلْحَوَادِثِ مُسْتَكِينَا
والتفت «هدبة» فإذا بأبويه يتوقعان الشكل، فهما بسوء حال، فأقبل عليهما وقال:
أَبْلِيَانِي الْيَوْمَ صَبِرَا مِنْكَمَا إِنَّ حَزْنَاً إِنْ بَدَا بَادِي شَرِّ
لَا أَرَانِي الْيَوْمَ إِلَّا مَيِّتَا إِنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ دَارَ الْمُسْتَقْرِّ
أَصْبِرَا الْيَوْمَ فَإِنِّي صَابِرٌ كُلَّ حَيٍّ لِقَضَاءٍ وَقَدَرِ

(الأصفهاني، ١٩٩٤م، ج ٢١: ١٧٦)

وقد ورد أن مروان ابن أبي حفصة قال: كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه.

وورد في كتاب الحيوان: «وكان هدبة من شياطين عذرة،... وقليلاً ما ترى مثل شعرة عند مثل حاله، وإن امرأ مجتمع القلب، صحيح الفكر... غضب اللسان في مثل هذه الحال، لناهيك به مطلقاً غير موثق، وادعاً غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار... وما قرأت في الشعر كشعر «عبد يغوث»، وطرفة، وهدبة هذا فإن شعرهم في الخوف لا يقصر عن شعرهم في الأمن، وهذا قليل جداً.

النتيجة

- ١- كان هدبة معروفاً بالشجاعة، والنجدة، والجلادة، والصبر، والمروءة.
- ٢- كان هدبة شاعراً راوية، كان يروى للحطيئة، والحطيئة يروى لكعب بن زهير، وكعب بن زهير يروى لأبيه زهير، وكان جميل راوية هدبة، وكثير راوية جميل.
- ٣- هدبة بن خشرم شاعرٌ فصيح متقدم من بادية الحجاز في أسرة من الشعراء: كان أبوه، وأمه، وإخوته الثلاثة وابن عمه عبد الرحمن شعراء. وهو شاعر مطيل له قصيد ورجز، وهو يرتجل يُيسر. وأسلوبه بدوي، وفي شعره شيء من الضعف، والغموض إلى جانب قدر من الصناعة الفظية. وفي رجزه الذي ناقض فيه عبد الرحمن بن زيد مجون.

ولمّا دخل هدبة السجن كثر شعره، وجاد. أما فنونه فهي الهجاء، والحماسة، والغزل،
والحكمة.

٤- صار بعض أبيات هدبة مثلاً حتى ضرب به المثل:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتبغى الشرّ والشرّ تاركى ولكن متى أحمل على الشرّ أركب

٥- هدبة أول من سن ركعتين عند القتل. وهو أول من أقيد في الإسلام.

المصادر والمراجع

ابن دريد الأزدى، أبو بكر. ٢٠٠١م. الاشتقاق. الموسوعة الشعرية. أبوظبي: المجمع الثقافي.
ابن قتيبة، عبدالله. ١٩٨٠م. الشعر والشعراء. الطبعة الرابعة. بيروت: دار الثقافة.
أبو علي، المرزوقي. ١٩٩١م. شرح ديوان الحماسة. الطبعة الأولى. بيروت: دار الجبل.
الأصفهاني، أبو الفرج. ١٩٩٤م. الأغاني. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
البغدادي، عبدالقادر. ٢٠٠١م. خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب. الموسوعة الشعرية. أبوظبي:
المجمع الثقافي.
البكري الأندلسي، أبو عبيد. ٢٠٠١م. اللآلي في شرح أمالي القالي. الموسوعة الشعرية. أبوظبي: المجمع
الثقافي.

بلاشير، رزي. ١٩٩٨م. تاريخ الأدب العربي. مترجم: إبراهيم الكيلاني. دمشق: دار الفكر.
التبريزي، المعروف بالخطيب. لاتا. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. بيروت: عالم الكتب.
شيخو، لويس. ١٩٩٩م. شعراء النصرانية بعد الإسلام. الطبعة الخامسة. بيروت: دار المشرق.
_____ . ١٩٨٩م. النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية. الطبعة الثانية. بيروت: دار المشرق.
الصفدي، صلاح الدين. ٢٠٠١م. الوافي بالوفيات. الموسوعة الشعرية. الطبعة الثانية. أبوظبي: المجمع
الثقافي.

فروخ، عمر. ١٩٨٤م. تاريخ الأدب العربي. الطبعة الخامسة. بيروت: دار العلم للملايين.
المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. لاتا. الموشح. تحقيق: فاروق سليم. بيروت: دار صادر.
تجور، فاطمة. ١٩٩٩م. المرأة في الشعر الأموي. الطبعة الأولى. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

